اجتهادات
أصواتُ حجارة غزة

للحجر مكانُه المُميز ومكانتُه الكبيرة فى الثقافة الفلسطينية منذ نكبة 1948. فى كثيرٍ من النصوص الأدبية ارتباطُ بالمكان ودلالاته. والمكان هنا تاريخُ وتراثُ ومبان وبشر. والحجر فى كل مكانٍ فى فلسطين محفورُ فى الذاكرة، خاصةً لدى من يُرغمون على ترك بيوتهم. فعندما هُجِرَ الفلسطينيون من بيوتهم قسريًا ودمويًا عام 1948، حملوها معهم فى أرواحهم وليس فى ذاكراتهم فقط، وبقيت مفاتيحُها لدى غير قليلٍ منهم ووَرثوها جيلاً بعد جيل. واكتسب الحجرُ دلالاتٍ إضافيةً فى الانتفاضة المدنية التى بدأت عام 1987. كان الطفل الذى يلقى حجارةً على جنود الاحتلال المُتخمين بالأسلحة رمز تلك الانتفاضة. ولكن دلالات الحجر السابقة لتلك الانتفاضة، واللاحقة لها، ستتوسعُ أكثر من أى وقت مضى، وتحملُ معانى جديدة غير مسبوقة فى تاريخ البشرية، نتيجة الدمار الشامل الذى ألحقه الاعتداء

الصهيونى ـ الأمريكى بالقطاع، ومازال. لم يترك المُعتدُون حجرًا فوق حجرٍ فى معظم الأماكن. يعيش بعض أهل غزة اليوم بجوار حجارة مبانيهم المُهدمة، وأحيانًا وسطها إذ يُقيم بعضهم خيامًا بدائيةً على أنقاض بيوتهم تأكيدًا لتصميمهم على ألا يتركوها مهما بلغ الإجرام. ويشعر من يطالع بعض الكتابات الفلسطينية النثرية والشعرية فى هذه الأجواء أنه يسمعُ أصوات حجارة غزة تنطق صمودًا وصبرًا وفخرًا، وتنادى من لا يعرفون للعزة معنى ولا تربطهم بالإنسانية صلةً فى عالمٍ مات ضميره. الحجر الفلسطينى ليس مثل غيره. الحجر، فى قصيدة محمود درويش ليتنى حجر، رمزٌ للثبات والصمود، وللتحنُّن أيضًا إذ يشعرُ ويُحسُ أكثر من بعض البشر أو كثيرٍ منهم لأنه يرتبطُ بحالةٍ فريدةٍ ومُتفردة. ولهذا يكتسبُ الحجرُ فى فلسطين، كما صوره درويش، معنى يُذكرُنا بقول الله تعالى فى سورة البقرة: (.. وإن من الحجارة لما يتفجرُ منه الأنهارُ وإن منها لما يشقَّقُ فيخرجُ منه الماء..) ومن الحجارة أيضًا ما يخشى الله بخلاف كثيرٍ من البشر أيضًا: وإن منها لما يهبطُ من

خشية الله. والحالُ أننا نجدُ فى كثيرٍ من النصوص الفلسطينية استنطاقًا للحجارة التى تعبرُ أيَّما تعبيرٍ عن تجربةٍ مأساويةٍ طال أمدها، ولكن لكل شىء نهاية.